

محنة الأنسة « مي »

للأستاذ عبد الله مخلص

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

عزيزي صاحب الرسالة

سلام الله عليك ورحمته . وبعد فقد ذكرت في العدد ٢٣٨ من (الرسالة) الغراء تماثل النابغة الأنسة (مي) زيادة من مرضها الذي لازمها نحو عامين ، وبشرتم أهل العلم والفضل بهذه البشرية التي أثلجت الصدور وأقرت الأعين ، فقمتم بعملكم هذا بحق الأدب عن كل أديب جزاكم الله خير الجزاء ولكن قاري هذا الخبر يظن أن الأنسة (مي) كانت حقيقة صريضة في لبنان وأنها الآن في دور النقاهة ، مما يخالف الواقع ويسدل ستاراً كثيفاً على المأساة التي أراد بعض من لا أخلاق لهم أن يمثلوها ويحولوا بين هذه المبقرة وبين ما كانت تنثره من الدرر النوالى وتبديده من الأفكار النيرة وتخدم به المجتمع العربي وأظنكم لا تضمنون على قادري قدر (مي) وعارفي فضلها بإزاحة ذلك الستار الأسود عن تلك النفوس الراضية والرجوه السود التي قذفت بأرقى شخصية أدبية في المارستان ثم بالمستشفى تحت جناح الظلام ومنعتها من الاختلاط بالناس فجعلوا منها ميت الأحياء

وعلى هذه العقيدة أكتب للرسالة الغراء — لالك ولا لي ، ولكن للحقيقة والتاريخ — عما أصاب (مي) من المصائب ، وانتابها من النوائب ، في خلال السنتين المنصرمتين حتى عادت شبيحاً من الأشباح تنعم على البشرية الظالمة وتعيب على جيرانها الأقربين ، وخصوصاً سيدات العرب اللاتي انتصرت لهن في كل موافقها . وإلى القاري العزيز فصول هذه المأساة وله أن يحكم بنفسه في أي عصر من عصور المدنية نحن ؟ وما هذا الذي يجري في معاهد العلم والفن من التآسي والمخازي التي تشيب لهولها الولدان وتضطرب الأئدة ؟

لا شك في أن كل أديب وأديبة في لبنان ومصر وفلسطين وسورية والعراق وجميع بلدان العرب يعرفون فضل (مي) على النهضة العلمية عامة والنهضة النسائية خاصة ، ولكنهم ربما

لا يعرفون أين نبتت هذه الزنبقة المطرة ، فرأينا أن تقتضب من سيرتها ما يجب معرفته

الآنسة مي هي ماري ابنة المرحوم الأستاذ إلياس زيادة من عرمون غزير في لبنان الذي كان مسقط رأسها ومنبت غرسها كما كانت مصر التي انتقلت إليها مهبط أنسها ومهوى نفسها

وهناك في بلد العلم في العالم العربي بدأت حياتها المجدية المفيدة فنشرت كتاب باحثة البادية^(١) وهو بحث انتقادي طبع سنة ١٩٢٠ ثم عززته بثان وثلاثها ابتسامة ودموع أو الحب الأملاني طبع سنة ١٩٢١ ، وكلمات وإشارات وهو يحتوي على خمس عشرة خطبة ألقها في مناسبات مختلفة وهو أول كتاب جمعت فيه خطب سيدة شرقية عربية وقد طبع سنة ١٩٢٢

ثم كتاب بين الجزر والد ، ودعوة وابتسامة ، وظلمات وأشعة ، وقد طبعت جميع هذه الكتب في سنة ١٩٢٣

ثم كتاب الصحائف الذي طبع سنة ١٩٢٤ وكتاب سوانح فتاة والمساواة ، غير الأبحاث الناضجة والآراء الاجتماعية الصائبة التي كانت تنشرها في المجلات والصحف حتى وصلت إلى درجة كانت جريدة الأهرام الكثيرة الأنصار الواسعة الانتشار تفتح لرسائلها صدرها وتقبلها أولى مقالاتها

ومما يدل على علو منزلة الأنسة (مي) أن بين الذين قرظوا كتابها (المساواة) الأمير شكيب أرسلان فكتب له المرحوم الدكتور يعقوب صروف أحد صاحبي المقتطف رسالة جاء فيها ما يلي :

« والمساواة مقالات نشرت أولاً تبعاً في المقتطف ثم جمعت وطبعت كتاباً على حدة فراقني جداً وصفكم له ، وأرجح أنها لم تترجم شيئاً ترجمة لأنها تتكلم مي في كل الموضوعات الأدبية والفلسفية كما تكتب ، فإنها قوية الدأكرة إلى حد يفوق التصور ، وقد قرأت كثيراً من الكتب في اللغات التي تحسها : الفرنسية والانكليزية والابطالية حتى لقد تستشهد في كلامها مي بأبيات من شكسبير أو بيرون كما تستشهد بالمتنبي والمري

وحفظت أيضاً كثيراً من قصائد شوق والمطران وحافظ وأظنها تصوغ معانيها في ذهنها بالفرنساوية والانكليزية قبلما تعبر عنها بألفاظها العربية »

(١) هو الاسم المنشور الذي كانت تنشر وراءه السيدة ملك ابنة العالم المصري المعروف المرحوم حفي ناصف في كتابة مباحثها النسائية

الظالمين إلى السيدة التي تألم كثيراً لها وتستعين بأوليائها من الرجال على كشف مظلمتها ويقوم هؤلاء السراة الأبحاد أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري ويعملون على إطلاق سراحها وينتهي الأمر بتدخل إدارة الأمن العام وإخراج (ي) التابعة من سجنها

فتعود الدئاب الخاطفة التي تخشى أن ترد إلى (ي) حقوقها الشرعية بالتصرف في أموالها وحليها ومكتبتها الفنية التي وضعوا أيديهم عليها ظلماً وعدواناً، وتصرفوا بها تصرف المالك في ملكه اعتسافاً وظمناً — يعودون إلى مراعاتهم الأولى من اختلاط عقلاها وضعف مداركها ويلحون باستشارة أهل الاختصاص من الأطباء، وتكون النتيجة دعوة طبيبي مستشفى المصغورية وريز لمعرفتها السابقة بحالتها وطبيبين آخرين، فتقرر هذه الهيئة الطبية المستشارة أن حالتها الحاضرة تبعث على الرضى، ولكن بالنظر لضعف جسمها يخشى أن تتأثر أعصابها مرة أخرى، ولذلك يشيرون عليها بقضاء دور النقاهة في منزل مناسب ببيروت وتنتقل بالفعل إلى ذلك المنزل هي وممرضتها الموكول إليها أمر العناية بها والقيام على حاجاتها ولوازمها

وعقيدة الطبيب في مريض من مرضى العقول لها تأثيرها في نفسه، فهو يظن به الظنون ولا يريد أن يقتنع بصحة مداركه مهما كانت ظواهره حسنة ولعل هذا هو الذي حدا بالطبيين الدواوين لها قبلاً على الإصرار على رأيهما فيها إن لم يكن هناك دافع آخر يدفعها إلى ذلك التعت

ويستمع الناس ولا سيما الطبقة المستنيرة إلى ما آله أمر (ي) فيأتون زرافات وواحداناً إلى كعبة الفضل يحجون إليها ويكون في طليعة هؤلاء الحجاج الكرام صديقنا فارس بك الخورى رئيس المجلس النيابى السورى وقربنته الفضلى. واستمع إلى ما يقوله هذا الرئيس الجليل لندوب أكبر صحيفة يومية لبنانية عن الأنسة (ي) :

« يمكننى أن أقول بكل صراحة إننى تحدثت إلى أناس كثيرين في بيروت فلم أرفهم من هو أعقل من الأنسة (ي). وأزيد على ذلك أننى سمعت من بعضهم أخطاء لم تفه (ي) بواحد منها، فهي بحالة عقلية تامة، ولكن صحتها الجسدية ضعيفة جداً

وشاء القدر أن تفقدى والديها واحداً إثر واحد كما يفقد كل إنسان أبويه في هذه الحياة، ولكنى الشاعرة المطوف الرقيقة الحواس تزلزل منها هاتان الصدمتان قوتها واحتمالها، وتساورها المموم والأحزان فتقع في عقر دارها تناجى نفسها وتندب حظها بفقد أعز الناس عليها، فيأتى إليها بعض ذوى قرباها في ثياب الحبل وهم ذئاب خاطفة ويحملونها على السفر إلى لبنان وطنها الساحر على أمل أن تجد في جوه الجليل ومائه النخيل ومناظره الخلابة وجباله الشام ما يرفه عن نفسها المشوبة بالأكدار

وتحزنى بمصل مخدر سواد ليلة من الليالى فتصبح بياض نهارها بين الجانين في مستشفى الأمراض العقلية المسمى بالمصغورية في ضاحية بيروت فتشور ولكن على من؟ وتستجد ولكن بمن؟ إنها أصبحت في عداد الذين أفقدتهم صدمات الحياة الرشد وأقدمتهم المصائب هذا القعد الأليم. وتنقطعى عن الطعام والشراب إلا ما تسد به الرمن وتستبقى بواسطته الحياة

وبعد أن تقضى السنة في ذلك المارستان^(١) ينقلها أولئك الدئاب إلى مستشفى ريز في بيروت ولكن بحوطونها برقابة شديدة ومنعوتها من الاختلاط بأحد لئلا يطلع على ما بيتوا لها من شر مستطير وأعدوا لها من ظلم صارخ فتم سنة أخرى بين العقلاء الذين لا تستطيع الذنوب منهم والتحدث إليهم

ويسعف الحظ فيؤتى بسيدة من آل الجزائري في دمشق إلى المستشفى وتوضع في غرفة مجاورة لغرفة (ي) السجينة قسمة (ي) صوت السيدة وهي تتعلم في فراشها من شدة الألم الذى أعقب عملية جراحية فتفتح الباب الموصل بين الغرفتين بجهد وتدخل إلى غرفة السيدة الجريح لمواساتها على تخفيف آلامها وتكرر فى هذه الزيارات ليلاً في خلسة من الرقباء

وتستأنس السيدة الجزائرية بجاراتها الحنون لاسيما بمد أن اندمل جرحها قسألها عن حالها وسبب مقامها في المستشفى فتنبجر (ي) بكل ما فى نفسها من آلام وتشكو أمرها وما تقاسيه من عنت

(١) يارستان كلمة فارسية استخدمها العرب للمستشفى الذى يوضع فيه المرضى والأعلاء ولكنهم اليوم يطلقونه في بلاد الشام على مستشفى الأمراض العقلية الذى أقيم في بعض المارستانات القديمة ويقولون له مارستان كما مر به قديماً

ومما قالته لي والألم ينبعث من عينيها : « تصورى زيادة على بعد عشرين دقيقة من بيروت قلب الشرق العربي وعاصمة لبنان الجليل الخالد ومهد الحضارة والنور وأم الجامعات والمؤسسات العلمية ودار الجمعيات الأدبية والخيرية ومركز جمعية النهضة النسائية . أجل تصور (ى) سجينته على بعد عشرين دقيقة من البلد الذى ذكرت »

ثم تلتفت بي إلى السيدة قريبته فتقول لها :

« أهذا ما كنت أنتظره يا سيدتي ؟ أهذه هي المكافأة التى أعدتها لي المرأة الشرقية بعد جهاد طويل ؟ أهذا ما تلقاه الأدبية في الشرق ؟ »

ولم يقتصر عمل فارس بك على الإدلاء بأرائه إلى الصحف ، بل إنه ذهب وبرفقته الأمير عادل أرسلان إلى ندوة المجلس النيابي اللبناني وتحدث عن زيارته لي وعن الأثر المؤلم الذى تركته هذه الزيارة في نفسه

وشاع ما عوملت به ى من العمل السيئ وذاع في لبنان فراع الناس ما سمعوا وأذهلهم ما قرءوا ، فاندفع أنصار الفضيلة إلى الأخذ بضعبها وشد أزرها ورد عادات العادين عنها ، وتقدم الجميع المحامي المشهور معالي الأستاذ حبيب أبي شهلا وزير الداخلية السابق في الحكومات اللبنانية المختلفة ، وتطوع للدفاع عن حقها المضمين وحرمتها السلبية أمام القضاء الذى لا ينصف المظلوم من الظالم ، والأخذ للضعيف من القوي ، فسر الناس لهذه القضية المضرة والنعرة الانسانية ، وبددوا يذكرونها بكل شفة ولسان ، ويكبرون هذا العمل من شخصية كبيرة مشهورة في الأوساط القضائية والادارية ، وهم على مثل اليقين من حصول القصد ونجاح المسمى لما عرف عن معالي الأستاذ أبي شهلا من قوة الحججة ووفور العلم وصحة المنطق مما يضمن الفوز له في هذا المعترك

وباع أمرى إلى أسياع الفلسطينيين الذين يجلون هذه النابغة وييجلون لها كسكل عربي ققامت أقرب مدينة من فلسطين إلى لبنان وهي عكا تنأى للفضيلة وتنتصر للعلم والأدب وتقدمت بواسطة الهانف رسالة إلى المحامي الأستاذ حبيب أبي شهلا على

يدى كاتب هذه السطور هذا نصها : -

إن محدثكم الآن وحوله جماعة من أدباء وعلماء هذه المدينة التاريخية عكا يتوجهون بخالص الأمانى وكبير الرجاء إلى الوزير الذى لم تبطره النعمة ولم تنعمه من الدفع عن المظلومين لتتولوا بما عرفتم به من الهمة الشكورة والغيرة المحمودة الدفاع عن مفخرة أدبيات العرب في القرن العشرين ونابغة النساء في الأقطار العربية الآنسة ى زيادة

إن إنقاذها من هذه الكارثة يسجل لكم بدأ كبيرة مشكورة بيضاء في خدمة الأدب العربي واللغة العربية فترجو أن يحقق الله على يديكم هذه المبرة العظيمة لهضة النساء في هذا الشرق العربي المتطلع إلى المستقبل الباسم بهمة أمثالكم وتقبلوا تحياتنا في هذه المدينة ...

ومما أذكره عن (ى) أنني كنت في بيت المقدس في أوائل سنة ١٩٢٣ فجاءته الآنسة (ى) زائرة دارسة وراح الأدباء والفضلاء للترحيب بها والتعرف إليها ، وقصدت أنا ورفيقي إلى زيارتها في المنزل الذى نزلت فيه فلم نجدتها إذ ذاك ، وفيما نحن عائدون قال لي صاحبي وهو يحاورني : أندري أن علم (ى) جنى عليها ؟ فقلت له : أفصح عما في ضميرك فيظهر أن للكلام بقية . فقال : أنا أحد الذين كانوا يرون السعادة كل السعادة في الاقتران (بى) لما وهبها الله من الخلق الجليل والصفات الطيبة ولكنى كنت أرى أن مستواها العلمى فوق مستوى فلم أجراً على طلب يدها . قال : وكان لي أمثال كثيرون ولكنهم كانوا يرون رأيي فيها وكنا حين نلتقي بى النابغة نشعر بماطفة الاكبار والاجلال لأدائها الرفيعة

والذى قال لي هذا القول لم يكن من عامة الناس بل هو من خريجي الجامعة الأميركية ومن أصحاب الثروات الطائلة والذين أثروا في الحياة الاجتماعية والمدنية ، ولكنه كان يرى نفسه دونها في العلم والفضل ويعترف بذلك ، فانظر ماذا كان مصير هذه العلوم والفضائل بين أعدائها الألداء ، عاملهم الله بما يستحقون وأذاقهم عذاب الهون

عبد الله مخلص